من المسلَّم به الآن أن كولومبوس لم يكن بالفعل أول رجل أوربى وطأت قدماه أرض القارة الأمريكية، بل إن كثيرين غيره سبقوه إلى ذلك ووصلوا الشواطئ الأمريكية الشمالية فى ظروف عارضة مما جعل آثارهم هناك شبه معدومة وأخبار رحلاتهم أشبه بالأساطير منها بالواقع التاريخى. هناك دلائل كثيرة على أن الإسكندنافيين وهم من الشعوب العريقة فى الملاحة، قد سبقوا كولومبوس بقرون عدة، فقد قذفت العواصف والأنواء البحار النرويجى (ندود) Naddod فى القرن التاسع إلى شواطئ أيسلندا ثم وصل بحارة آخرون إلى جزيرة جرينلاند، (أى الأرض الخضراء) وكان ذلك سنة ٩٨٦م. وبعد ذلك بسنوات قليلة، أى فى نهاية القرن العاشر كان الإسكندنافيون قد وصلوا حتى شواطئ لابرادور وأسكتلندا الجديدة على الشاطئ الشرقى لأمريكا الشمالية، إلا أن هذا الاكتشاف لم يكن له أثر كبير لأسباب عديدة: أهمها أن المكتشفين أنفسهم لم يدركوا حقيقة الأرض التى وصلوا إليها، كما أنهم لم يحاولوا استعمارها أو السكن فيها؛ ولذا فقد اندثرت أخبارها إلا القليل الذى نجده فى بعض القصائد والأغانى الإسكندنافية القديمة أو بعض النصوص اللاتينية العائدة إلى القرون الوسطى. وعلى كل فإن هذه الإشارات غامضة ولا تساعد على معرفة الحقيقة بصورة واضحة.

أما جرينلاند فقد بقيت هناك جالية إسكندنافية حاولت أن تعيش فيها وتستعمر ارضها وقد بنى هؤلاء مدينة لا تزال آثارها باقية حتى الآن، كما خلفوا لنا آثار كنيسة تعود على الأرجح إلى القرن الثانى عشر، إلا أن هؤلاء السكان لم يلبثوا أن انقرضوا تماما بعد أن هاجر قسم منهم إلى أيسلندا، واندمج آخرون مع سكانها الأصليين (الإسكيمو). ويعود السبب فى ذلك إلى انقطاع المواصلات بصورة تدريجية بين إسكندنافية وكل من أيسلندا وجرينلاند.

بالطبع لم تكن القارة الجديدة خالية من السكان ولا من الحضارات إنما كان القسم الأكبر من سكانها قد تجمع فى المناطق الوسطى من القارة. وقد أثبتت أكثر الدراسات على أن هؤلاء السكان الذين أسماهم كولومبوس بالهنود إنما هم من سكان العالم القديم على الأرجح؛ ذلك أنه حتى الآن لم يعثر فى أمريكا على آثار إنسان قديم كإنسان نياندرتال فى أوربا. والأرجح أن هؤلاء قد عبروا مضيق بيرينغ بعد نهاية العصر الجليدى ويرجح أنهم ينتمون إلى العنصر المونغولى الذى ينتمى إليه الصينيون. أتوا من شمال آسيا إلى شمال أمريكا ومن ثم أخذوا بالاتجاه جنوبا مع الزمن بحثا عن أسباب الحياة؛ ذلك أنهم ظلوا ولفترة طويلة شعوبا رحل تعيش من الصيد والقنص. ونحن نجهل متى بدأت بعض هذه الشعوب بالانتقال إلى مرحلة الزراعة، وهذا الانتقال يعتبر خطوة مهمة فى تطورهم الحضارى؛ ذلك أن ممارستهم للزراعة هى التى أجبرتهم على الاستقرار. وبالتالى هى التى أدت إلى قيام حضارات زاهية فى تلك القارة، حتى أن بعض هذه الشعوب توصلت إلى معرفة بعض المعادن وإلى استعمالها، إلا أنها لم تصل إلى اكتشاف الحديد واستخدامه.

هنا أشير إلى أن هذه الحضارات تطورت بصورة منعزلة تماما عن حضارات آسيا، وبالتالى فليس بينهما تشابه مهم، يضاف إلى ذلك أن هذه الحضارات الأمريكية كانت تختلف اختلافا جذريا عن الحضارات السائدة فى أوربا زمن الاكتشاف، أى فى القرن الخامس عشر والسادس عشر. وأهم هذه الحضارات ثلاثة: حضارة الأزتيك، وحضارة المایاس، وحضارة الأنكا.

الأزتيك Les Azteques

فى القرن الثالث عشر نزلت فى سهول المكسيك شعوب رحل تتعيش من الصيد والقنص، واشتبكت فى صراع طويل مع السكان الأصليين تمكنت فى نهايته من تثبيت أقدامها هناك ومن بناء عاصمتها الشهيرة Tenochtitlan (مكسيكو

الحالية) فى سنة ١٣٢٥ كـما تقول الروايات القديمة ، وحتى القـرن الخامس عشر لم يكن الأزتيك قد بنوا لأنفسهم مكانة كبيرة بين سكان أمريكا الوسطى، إلا أنهم بعد ذلك تحالفـوا مع بعض القبائل المجاورة مما سمح لهم تدريجـيا بالسيطرة على كل الشعوب المجاورة لهم وإقامة دولة كبيرة شملت القسم الأكبر من بلاد المكسيك الحالية. فى هذه المرحلة تطورت عـاصمتهم وكثر سكانهـا حتى أن الرواد الأسبان الأوائل دهشوا لكـبرها وتنظيمـها وازدهارها وكـثرة سكانهـا. والواقع أن وصول الأسبـان إلى البلاد قـد صادف أعلى مـراحل ازدهار حضارة هذا الـشعب. وأبرز مظاهر هذه الحضارة:

١- الدين:

كان للأزتيك آلهة كـثر ورثوا الاعتقاد بهـم عن أجدادهم، وكان بعض هذه الآلهة يتصف بالشراسـة وحب الدماء البشرية، بينما بعضها كـان أكثر مسالمة. إلا أن أبرز ما فى الأمر كـان هناك ميل واضح نحو فكرة التوحـيد، والفضل فى ذلك يعود إلى رجـال الدين المثقفين، إلا أن هذا التـفكير بقى محصـورا فى إطار ضيق ولم يصل إلى الجماهير.

كانت مـعابدهم تبنى فـوق أهرامات إمـا من الحجارة الصلبـة أو من الطين المجفف والنيران تبقى مشتعلة فـيها ليلا نهارا إرضاء للآلهة، ذلك أن أبناء الأزتيك كانوا يعـيشون فى قلق دائم خائفـين من غضب آلهتـهم؛ ولذا فكانوا يكثرون من الاحتـفالات الدينيـة ويبالغـون فى خدمـة المعابد والهـياكل، وفى بعض الأعـياد والمناسبات كانوا يقدمون القرابين والذبائح البشرية لها.

٢- الجيش:

كانت لأفراد الجيش مكانة كـبيرة فى مجتمعـهم تعادل مكانة الكهنة ورجال الدين. إن هذا الشعب كله بطبـعه مشـاكس وميال للقتـال فهو إذا بحاجـة دائمة لجيش قوى منظم؛ ولذا فقد عرف بعض التنظيمات التى تتبعها الجيوش الحديثة فى أيامنا.

قسموا جيشهم إلى محترفين يرسلون إلى المدارس العسكرية، حيث يدربون لعدة سنوات على تمارين قاسية. وكان يشترط للدخول إلى هذه المدارس مستوى محدد من الثقافة. وتفرض الخدمة العسكرية العادية على الجميع إلا أن هؤلاء كانوا يدعون فقط أثناء الحروب.

وبفضل هذا التنظيم أصبحت لهم شهرة فائقة وباتوا مرهوبى الجانب فى أمريكا الوسطى. وهنا تجدر الإشارة إلى أنهم رغم قوتهم وميلهم للمشاكسة لم يكونوا ميالين لسفك الدماء بل كانوا دائما يفضلون فى حروبهم الحصول على الأسرى لتقديمهم للمعابد والهياكل فكانوا يتجنبون ما أمكن قتل خصومهم.

٣- النظام السياسى:

لقد ثبت من الدراسات الحديثة أن الأزتيك قد مارسوا نظاما سياسيا متطورا فتعيين الحاكم كان يتم بالاختبار وليس بالوراثة وإن كان هذا الاختبار يجب أن يتم فى عائلة واحدة. وكان يساعده فى شئون الحكم مجلس يتولى هو دراسة وتقرير الأمور المهمة فى اجتماعات دورية منتظمة.

المایاس Les Mayas

يعود شعوب المایاس فى أصلهم إلى بلاد جواتيمالا وجنوب الهندوراس، حيث أقاموا لهم مدنا بعضها بلغ درجة عالية جدا من الازدهار والتقدم كمدينة Palenque Copan ، إلا أنهم فى القرن السادس هجروا مدنهم وقراهم لأسباب لا تزال مجهولة ربما كانت خوفهم من وباء الحمى الصفراء التى اجتاحت المنطقة أو بسبب استنفاد طاقات التربة بأساليبهم الزراعية البدائية. لجأوا إلى شبه جزيرة يوكاتان حيث حلوا وجعلوا Chichen Itza مركزا سياسيا ودينيا لهم. ومنها نشروا حضارتهم وثقافتهم فى كل أرجاء شبه الجزيرة. ثم تخلى السكان عن المدينة لأسباب مجهولة فى القرن السابع ليعودوا إليها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر حين أصبحت أزهى مدن المكسيك وأكثرها عمرانا وتقدما. وقبل أن يهجرها

سكانهـا نهائيا هـذه المرة فى القرن الخـامس عشر كـانت قد بلغت أعلـى مراحل تطورها العمرانى، فالدراسات التى أجراها علماء الآثار فى غابات أمريكا الوسطى مؤخـرا كشفت بقـايا مدينة تتسع لآلاف السكان، شـوارعها عـريضة تحفـها على جانبيها أشجار النخيل، وساحاتها فسيحة تقوم حولها معابد ضخمة وقصور جميلة البنيان. ويشرف على المدينة أهرام كبيرة ومعبد الإله (كوكولكان).

١- الدين:

لقـد عرف هذا الشـعب الازدواجيـة فى الدين والتى تتلخص فى الصـراع الدائم بين قوى الخير وقـوى الشر. وقد ساعدت ديانتهم إلى حـد كبير على تطور فنى العمارة والتصوير. إذ إنهم كانوا يغـالون فى تزيين معابدهم بالرسوم والصور ويغلب على فنهـم الطابع الرمزى الدينى. والثعبـان يظهر فى أكـثر رسومـهم وصورهم لأنه كـان بالنسبة إليـهم حيوان مقـدس. وأكبر مـعابد المایاس هو ذلك القائم فى مدينة Chichen Itza والذى لا تزال آثاره باقية حتـى اليوم. شمالى هذا المعبد يوجد ينبـوع كان يلعب دورا كبيرا فى احتفـالاتهم الدينية؛ ذلك أنهم كانوا يعتبرونه مقـدسا وفيه تقدم القرابين إلى إله المطر الذى يتمـتع بمكانة كبيرة عندهم؛ نظرا لأن الزراعة كانت مصدر رزقهم الأساسى.

وفى احتفال كبير يحضـره مندوبون من جميع مدن وقرى البلاد كان الكهنة يختارون أجمل فتاة فى المدينة ويلقون بها فى احتفال صاخب فى الماء لتكون قربانا للآلهة وهذا الاحتـفال كان يجرى مـرة كل سنة وكانت الفتيات يتـهافتن لنيل هذا الشرف الكبير.

٢- العلوم الثقافية:

لقد بلغ هذا الشعب درجة عالية من الحضارة والتنظيم الاجتماعى فقد عرف هؤلاء علم الفلك وأقاموا مرصـدا فلكيا جاءت أعماله على درجة كـبيرة من الدقة ذلك أن أعمـال هؤلاء أدت إلى وضع تقويم أرفع مـن أى تقويم عرفـته شـعوب

أخرى بنفس المستوى الحضارى. بل ربما أمكننا أن نقارنه بالتقويم الغريغورى الغربى. وانطلاقا من دراساتهم الفلكية والرياضية توصلوا إلى نوع من الكتابة سجلوا به كل ما عرفوه من تاريخهم ومن حركات النجوم. إلا أنه لم يصل من هذه الكتابات سوى مخطوطات ثلاثة صعب على العلماء حتى الآن فك رموزها وقراءة ما فيها. إن لغتهم المحلية لا تزال موجودة حتى الآن وهى أكثر اللغات المحلية انتشارا فى أمريكا الوسطى غير أنها فقدت الكثير من مصطلحاتها القديمة بسبب ما دخلها من كلمات وأفعال أخذت من الأسبانية.

حضارة الأنكا Incas:

حوالى القرن العاشر الميلادى انطلقت هذه الشعوب من ضفاف بحيرة تيتيكاكا الواقعة فى مرتفعات جبال الأنديز فى بلاد البيرو وقضت على نفوذ كل من كان قبلها من شعوب وحضارات وجعلت مدينة كوزكو عاصمة ومركزا لها. فهم بالتالى ورثة الحضارات القديمة التى قبلهم فى تلك المنطقة كحضارتى Ayma-ras Quechuas اللتان قامتا فى مرتفعات جبال الأنديز وحضارات شواطئ البيرو التى كان ازدهارها كما يرجح العالم الأمريكى مينز فى القرون الميلادية الخمسة الأولى.

وقد امتد نفوذهم تدريجيا حتى شمل فى مطلع القرن السادس عشر بلاد البيرو كلها وبوليفيا والإكوادور وقسما من بلاد الشيلى. وكان ذلك زمن إمبراطورهم هوياناكاباك الذى عرفت البلاد فى أيامه ذروة قوتها العسكرية واتساعها الجغرافى إلا أن وفاته فى سنة ١٥٢٥، أى قبل وصول الغزاة الأسبان إلى بلاده بخمس عشرة سنة أدت إلى تقسيم البلاد بين ولديه.

١- التنظيم السياسى:

لقد سيطرت فكرة الدولة على الحياة الاجتماعية لهذه الشعوب، فالمواطن يعتبر نفسه فى خدمة الدولة. وبالتالى فهو مجبر على إظهار الولاء المطلق لها وللحكومة. يقف على رأس الهرم الحكومى الأنكا المقدس وهو الحاكم الأعلى للبلاد وسلطته على البلاد والمواطنين لا حد لها لما له من طابع القداسة. ومن هذه

الناحيـة من الصعب مـقارنة سلطاته مع أى من حكـام العالم القديم حـتى أولئك الأباطرة المستـبدين الذين عـرفتهم شـعوب الشـرق القديم. يليـه مباشـرة رؤساء الوحدات الإدارية وأهمهم حكام المقـاطعات وعددهم أربعة. ويقيم هؤلاء جـميعا فى العاصمة ويشكلون مجلسا خاصا يساعد الحاكم.

١- التنظيم الإدارى:

تنظيـمهم الإدارى كان مـركزيا لدرجـة كبيـرة ولعل سبـبه السلطات الغـير محـدودة التى كان يتـمتع بها الأنكا، فـقد ركزت جـميع الإدارات الحكومـية فى العاصمة لتكون له القدرة على إدارة شئون البـلاد كلها بنفسه. ولتسهل هذه المهمة ربطت العاصمة بجميع أنحاء الإمبراطورية بشبكة واسعة من الطرق.

٢- التنظيم الاجتماعى:

الوحدة الأساسـية للسكان هى الأيولو أو بعبـارة أصح القبيلة. ومجـموعة القبـائل هى التى تشكل الدولة التى يرأسهـا الملك أو الإمبراطور، لقـد عرف هذا المجتمع نظام الطبقات الذى شاع فى العالم القديم.

١- الأنكا وله المقام الأول نظرا لكونه الحاكم ولما له من طابع القداسة.

٢- طبقـة الأشراف وهؤلاء لهم امتـيازاتهم القـديمة وأبرزها حصـر المراكز القيادية فيهم وجعل التعليم والثقافة احتكارا لهم.

٣- رجال الدين وكهان المعـابد وهؤلاء يشكلون طبقة خاصة لها امـتيازاتها وهى متساوية فى المرتبة مع طبقة النبلاء ورجال الحكم ويرأسهم الكاهن الأكـبـر «كاهـن معـبـد الإله الشـمس» ويكون عـادة شـقـيق أو عم الإمـبراطور. وينضم إلى هذه الـفئـة «عذارى الإله الشـمس». وهؤلاء فتيات يهبن أنفسهن لخدمة الآله، يسكن فى أديرة خاصة وينذرن العفة. وأهم أعـمالهن حـيـاكة مـلابس الإمبـراطور، وصنع المشـروبات التى تستعمل فى الأعياد والمناسبات الدينية.

٤- طبقة عامة الشعب ومهمتهم الأساسية خدمة الدولة. إلا أن هذه الخدمة يقابلها حقوق على الدولة، فالدولة ملزمة فى أيام السلم بتأمين رعاياها وحمايتهم من الجوع،كما تلتزم بإعالتهم فى حالات المرض والشيخوخة.

٣- الملكية:

لم يعرف هـذا الشعب ملكيـة الأرض بالشكل المألوف، فالأرض الزراعية عندهم تقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم خاص بإلـه الشمس يستثمره ويديره الكهنة ورجال الدين، وقسم يخص الإمبراطور الأنكا، والقسم الثالث موزع بين القبائل (ايولو) أما داخل القبيلة فلم تكن هناك ملكية خاصة إنما الأرض للجماعة يوزعها فى كل عام زعيم القبيلة بين العائلات حسب حاجاتها بحيث يحصل كل فرد على الأرض اللازمة لإعالته.

٤- الدين:

عبادة إله الشمس كانت الدين الرسمى للدولة؛ ولذا فمعابد البلاد كانت مخصصة لعبادته. وأهم هذه المعابد هو معبد إله الشمس القائم فى العاصمة كوزكو. وكان يحيط به حائط كبير من الحجارة الضخمة وفى داخله كانت الجوانب والسقوف مزينة بالذهب. أما فى داخله أى فى قدس الأقداس فكان هناك قرص من الذهب له شكل وجه إنسان تحيط به نجوم بشكل تاج صنعت من الذهب أيضا، يرمز إلى وجه إله الشمس. وعلى جانبيه مقاعد من الذهب صنعت عليها مومياء الأباطرة القدماء.

ومرة فى العام فى عيد الشمس، يفد الوجهاء وممثلو المناطق من كل أرجاء الإمبراطورية ليحضروا حفلات خاصة تقام بهذه المناسبة وتقدم فيها للإله القرابين الحيوانية.

٥- الكتابة:

مارس هذا الشعب نوعا خاصا من الكتابة، فقد وجدت فى بعض القبور حبال ذات عقد كثيرة، وقد اختلف العلماء فى مدلولها إلا أن علماء الآثار يرجحون أن هذه العقد تمثل أحرفا وكتابات، بينما يرى آخرون أنها تمثل أرقاما استعملت فى حساباتهم.

٦- فى البناء والعمران:

عرف فن العمران تطورا كبيرا عند شعوب الأنكا لا تزال الكثير من آثاره بادية حتى اليوم فى ما بقى من مدنيتهم، فالأبنية الضخمة والقصور تزين الساحات